الصباح الإسلامية
08
العدد 1634 - السنة السادسة
الاثنين 5 شوال 1434 - الموافق 12 اغسطس 2013
Monday 12 August 2013 - No.1634 - 6th Year

تهدي عباد الله إلى أحسن السبل وأكملها وتنير طريقهم

الأخلاق الإسلامية.. نعيم في الدنيا ومنزلة عالية في الآخرة

■ وصايا لقمان لابنه التي وردت في القرآن مشكاة يستنير بها المتخلقون بأخلاق الإسلام

■ النصوص القرآنية العظيمة تناولت جانب الأخلاق الحسنة ومدحت أصحابها والعاملين بها

■ المسلمون لا يساعدون أهل الباطل و يحافظون على أوقاتهم ولا يفنونها في اللهو واللغو

■ النبي الأكرم بعث ليتمم مكارم الأخلاق ودعا لترك كل ماهو قبيح والتمسك بكل ماهو حسن

■ المسلم الحق عفيف يصون كرامته ويحفظ ماء وجهه ويتحلى بالصبر حتى يفك الله عنه الضيق

■ حذرنا الرسول من التعالي على قبول الحق والترفع على الخلق فالتكبر يتنافى مع الخلق الكريم

أنزل الله عز وجل كتابه الكريم ليكون هدى ونورا يضيء الطريق لأتباعه، ويهديهم إلى أحسن السبل وأكملها، يهذب أخلاقهم ويسوي اعوجاجهم ويصلح فاسدهم. فلا عجب من مجيء النصوص الكثيرة في القرآن العظيم تتناول جانب الأخلاق الحسنة وتمدح أصحابها والعاملين بها. ولقد جات نصوص كثيرة في القرآن تصف الأخلاق التي ينبغي أن يتصف بها عباد الله حتى ينالوا رضى الله وثوابه:

أ- وصايا لقمان: يخبرنا الله عز وجل عن عبده لقمان الحكيم الذي أوصى ابنه بمجموعة من الوصايا، هي خلاصة تجربته ومعرفته بالحياة.

فمن ذلك قوله: «وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» «سورة لقمان: 13».

فبدأ وصيته بذكر أعظم شيء ينبغي أن يتمسك به وهو توحيد الله عز وجل وعدم الإشراك به، فهذا هو رأس الأمر، وكن الإسلام الأساسي.

ثم يبين له عظمة الخالق -سبحانه وتعالى- وعلمه المحيط، وقدرته النافذة فيقول: «يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ» «لقمان: 16».

ثم ينتقل إلى مناصحة ابنه للالتزام بما أمر الله -عز وجل- من إقام الصلاة، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصبر على تحمل الأذي في سبيل دينه، فيقول: «يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ» «لقمان: 17».

أي من الأمور الواجبة عليك ولست مخيراً فيها.

قال ابن عباس: من حقيقة الإيمان الصبر على المكاره.

ثم نهاه عن بعض الصفات الذميمة التي لا تجتمع مع الإيمان، كالاختيال والتبختر، والإعراض عن الناس كبراً وأنفة، فقال: «وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ» «لقمان: 18».

وأخيراً يحثه على التواضع، والتوسط في المشي من غير تكبر ولا تجبر، وأن يخفض صوته، فإن رفع الصوت منكر وغير محمود، فقال: «وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ» «لقمان: 19».

ب- صفات عباد الرحمن: جمع الله عز وجل صفات عباد الرحمن في سورة الفرقان من آية 63-76، حتى يتصف بها عباده، فينالوا بذلك رضاه عنهم وثناءه عليهم.

فمن صفاتهم: أنهم يقتصدون في المشي، فيمشون بسكينة ووقار من غير تجبر ولا تكبر. «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا» «الفرقان: 63».

وأنهم لا يجهلون مع أهل الجهل من السفهاء، ولا يخالطونهم في مجالسهم. «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا» «الفرقان: 63».

وأنهم يتعبدون لله عز وجل ليل نهار ابتغاء مرضاة الله. «وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا» «الفرقان: 64».

وأنهم مع عبادتهم لله عز وجل فإنهم يخشون العذاب، فلذلك تجدهم يدعون الله سبحانه أن يصرف عنهم العذاب. «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا» «الفرقان: 65 - 66».

وأنهم وسط بين المسرفين المبذرين وبين البخلاء المقترين، فهم ينفقون لكن بإعتدال «وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا» «الفرقان: 68». وأنهم لا يتوجهون بالعبادة إلا إلى الله، ولا يضرب بعضهم رقاب ب إلا بالحق، ولا ينتهكون أعراض الناس وحرماتهم، لأن اقتراف هذه الآثام كبيرة يؤدي إلى الخلود المهين في عذاب جهنم.

وأنهم لا يساعدون أهل الباطل فيشهدون لهم زوراً وكذباً، «وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ» «الفرقان: 72».

وأنهم يحافظون على أوقاتهم ولا يفنونها في اللهو واللغو. «وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا» «الفرقان: 72».

2. الأخلاق في السنة المطهرة:

أ- أخلاق محمودة حث عليها النبي صلى الله عليه وسلم: عن أنس رضي الله عنه قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خُلُقاً» متفق عليه.

وقد مدحه الله عز وجل بذلك فقال: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» «سورة القلم: 4». وقد حدثت عائشة رضي الله عنها عن خلق الرسول عليه الصلاة والسلام فقالت: «كان خلقه القرآن» رواه مسلم.

وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى التخلق بالأخلاق الحسنة وحذرهم من الأخلاق السيئة، ووعد أصحاب الأخلاق الكريمة بالأجر الكبير والثواب الجزيل.

قال صلى الله عليه وسلم: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيّ» رواه الترمذي. وقال: حسن صحيح.

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله وحسن الخلق» رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

ومن هذه الأخلاق الحسنة:

1. الحياء:

الحياء: خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق. الحياء من أقوى البواعث على الاتصاف بما هو حسن، واجتناب ما هو قبيح، فإذا تخلق به المرء سارع إلى مكارم الأخلاق، ونأى عن رذائل الصفات، وكان سلوكه سلوكاً نظيفاً مهذباً، فلا يكذب في القول، ولا تطاوعه نفسه في اقتراف الإثم.. والحياء بهذا المعنى هو الذي عناه النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه، وحث عليه صحابته الكرام.

فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الحياء لا يأتي إلا بخير» رواه البخاري ومسلم.

ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء -كأنه يقول: إن الحياء قد أضرّ بك- فقال صلى الله عليه وسلم: «دعه، فإن الحياء من الإيمان» رواه البخاري ومسلم.

2. العفة: هي: الامتناع عن الحرام، وكف السؤال من الناس.

المسلم الحق عفيف مستغن لا يتطلع إلى المسألة، ولا يريق ماء وجهه، بل يصون كرامته ويحفظ ماء وجهه مهما ساءت به الظروف، وألمت به سوء الأحوال، فتجده يتذرع بالصبر حتى يفك الله عنه الضيق، ومن توكل على الله جعل له مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب.

وقد وعد النبي صلى الله عليه وسلم المستعف بأن الله سيغنيه ويعفه، قال صلى الله عليه وسلم: «من يستعف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله» رواه البخاري ومسلم.

3. الكرم: الكرم هو: الجود والعطاء والسخاء.

الإسلام دين يقوم على البذل والإنفاق، ولذلك حبب إلى معتنقيه أن تكون نفوسهم سخية وأكفهم ندية، ووصاهم بالمسارعة إلى دواعي الإحسان ووجوه البر، قال الله تعالى: «وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون» «البقرة: 272».

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» متفق عليه.

والكرم لا ينقص ثروة الكريم ولا يقربه من الفقر، بل هو طريق السعة والزيادة وسبب النماء، قال صلى الله عليه وسلم: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» رواه مسلم.

ب- أخلاق مذمومة حذر منها النبي صلى الله عليه وسلم

1. الكبر:

الكبر هو: التعالي عن قبول الحق، والترفع على الخلق التكبر يتنافى مع الخلق الكريم، ويغرس الفرقة والعداوة بين الناس، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل من صلات، ولذلك شن الإسلام عليه حرباً شعواء حتى يطهّر منه النفوس والقلوب، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الداء العضال، وهدد صاحبه بالعذاب والخزي، قال النبي الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس» رواه مسلم. وقال أيضاً: «ألا أخبركم بأهل النار: كل عُتُلّ جواظ مستكبر»، رواه البخاري ومسلم.

العتل: الغليظ الجافي.

الجواظ: الجموع المنوع، وقيل الضخم المختال في مشيته.

وحسب المتكبرين خزياً ومهانة في الدار الآخرة أن الله تعالى لا ينظر إليهم، قال صلى الله عليه وسلم: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ ثوبه خيلاء». رواه البخاري ومسلم.

2. الحسد: الحسد هو: تمني زوال النعمة عن صاحبها، سواء كانت نعمة دين أو دنيا.

حرم الإسلام الحسد، وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستعيذ من شرور الحاسدين، لأن الحسد جمرة تتقد في الصدر، فتؤذي صاحبها وتؤذي الناس.

وقد حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم تحذيراً شديداً فقال: «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» رواه أبو داود. وضعفه السيوطي والألباني، وحسنه الحافظ العراقي من طريق أخرى في تاريخ بغداد.

ثم إن الحاسد شخص واهن العزم، جاهل بربه، وبسنته في كونه، وكان أجدى به أن يتحول إلى ربه فيسأله من فضله، فإن خزائنه سبحانه ليست حكراً على واحد بعينه.

3. الغيبة:

الغيبة هي: أن تقول في أخيك ما يكرهه مما هو فيه. عرفنا النبي صلى الله عليه وسلم بالغيبة التي حرّمها الإسلام ونفر منها أشد التنفير، فقال صلى الله عليه وسلم: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره. قال رجل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته» رواه مسلم.

بهته: كذبت وافتريت عليه.

فإذاً لا يجوز ذكر الغير بما يكرهه من النقائص والعيوب، سواءً كان ذلك متصلا بنقص في بدنه أو خلقه أو نسبه، فإن ذلك مما يثير الفتن ويقطع الروابط ويمزق الصلات. وليست الغيبة مقصورة على الذكر باللسان فقط، بل ذلك شامل لكل ما يفيد معنى التحقير، سواء كان بالإشارة أو التلميح، قال تعالى: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ» «سورة الهمزة: 1».

3. منْ أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم: كان النبي صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم، كما شهد له بذلك المولى تبارك وتعالى: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» «سورة القلم: 4».

وقد وصفته الصحابة بأكثر من ذلك، فقد وصفه بعض أصحابه بأنه كان متصلا بنقص في بدنه أو خلقه أو نسبه، فإن ذلك مما يثير الفتن ويقطع الروابط ويمزق الصلات. وليست الغيبة مقصورة على الذكر باللسان فقط، بل ذلك شامل لكل ما يفيد معنى التحقير، سواء كان بالإشارة أو التلميح، قال تعالى: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ» «سورة الهمزة: 1».

3. المزاح: المزاح مع أصحابه: يجوز المزاح والمداعبة بالكلام من أجل غرس السرور والمؤانسة في نفوس الناس واستمالة القلوب، لكن في حدود الحق والصدق، وتجنب إيذاء الغير، وهذا ما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم.

4. الرفق: ينبغي للمسلم أن يعامل أخاه بالرفق واللين، فلا يغلظ في قول، ولا يقسو في معاملة، وقد اتصف النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الأدب، فكان من أسباب محبة الناس له وجمعهم عليه، قال تعالى: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ» «سورة آل عمران: 159».

5. أثر حسن الخلق في نشر الإسلام: إن حسن الخلق يرفع منزلة صاحبه في الدنيا، ويرجح كفة ميزانه في الآخرة، إذ هو أثقل شيء في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيّ» رواه الترمذي، وقال حسن صحيح.

ولا شك أن الفطر السليمة تهتدي إلى الخير، وتنجذب إلى ما يدعو إلى الفضائل والمكارم.

خُلُقه القرآن» رواه مسلم.

أي أن كل الصفات الحميدة التي دعا إليها القرآن قد اتصف بها النبي صلى الله عليه وسلم، وكل الصفات الذميمة التي نهى عنها القرآن تركها النبي صلى الله عليه وسلم.

4. ومن صفات النبي صلى الله عليه وسلم:

أ. الحلم: كان من صفات النبي صلى الله عليه وسلم الحلم وكظم الغيظ، وكان ينهى عن الغضب ويقول: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» رواه البخاري ومسلم.

وكان صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الحلم، ويُثني على من اتصف به، فقد قال صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله تعالى ورسوله: الحلم، والأناة» رواه مسلم.

جبذ: جذب.

2. التواضع: التواضع خلق كريم يبعث على محبة الناس للعبد المتواضع، ويرفعه الله عند الناس، كما يعلي درجته في الآخرة. ونظراً لأهمية التواضع فقد وردت نصوص كثيرة من الكتاب والسنة تحبب في التواضع وترغب فيه وتحض عليه، وتؤكد للمتواضعين أنهم كلما تواضعوا امتثالاً لأمر الله لما ازدادوا عند الله رفعة وسُمُوّاً، قال صلى الله عليه وسلم: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» رواه مسلم.

3. المزاح مع أصحابه: يجوز المزاح والمداعبة بالكلام من أجل غرس السرور والمؤانسة في نفوس الناس واستمالة القلوب، لكن في حدود الحق والصدق، وتجنب إيذاء الغير، وهذا ما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم.

4. الرفق: ينبغي للمسلم أن يعامل أخاه بالرفق واللين، فلا يغلظ في قول، ولا يقسو في معاملة، وقد اتصف النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الأدب، فكان من أسباب محبة الناس له وجمعهم عليه، قال تعالى: «فبما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ» «سورة آل عمران: 159».

5. أثر حسن الخلق في نشر الإسلام: إن حسن الخلق يرفع منزلة صاحبه في الدنيا، ويرجح كفة ميزانه في الآخرة، إذ هو أثقل شيء في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيّ» رواه الترمذي، وقال حسن صحيح.

ولا شك أن الفطر السليمة تهتدي إلى الخير، وتنجذب إلى ما يدعو إلى الفضائل والمكارم.

حاجة الدعوة إلى البذل.. والتضحية

لا تُنال المعالي بالأماني، ولا تقوم الدعوات إلا على ألوان البذل والتضحية بشتى صنوفها. وإذا عُرف أن ابتلاء الدعاة سنة ماضية تبين أن الدعوة الحقة لا تقوم بلا تضحية.

والمراد بالتضحية: التبرع بالشيء دون مقابل «1»، كالتضحية بالنفس أو المال أو العمل أو الوقت أو الجاه أو العلم أو المنصب.. أو غير ذلك، حتى يظن الإنسان أن لا حق له فيما زاد على حاجته الضرورية، فيبذل جهده في تقويم ذلك دون مقابل مادي يناله مكافأة على تبرعه، وإنما يرجو بذلك كله وجه الله تعالى، ونصرة دينه «2».

وهذا المعنى نفسه هو المقصود من الجود والبذل، وإن كان غلب إطلاق الجود على إنفاق المال الكثير، بسهولة من النفس، في الأمور الجليلة القدر الكثيرة النفع كما ينبغي، وهو لا شك من أعظم أبوابه، والمال عماد لكثير من أعمال الخير المتعدية التي لا تقوم إلا به.

الجود والتضحية شعبة من شعب الإيمان، وخير وسيلة لشكر نعم الله التي لا تحصى، لأنها استعمال للنعم في محبة الله عز وجل، كما أن استعمالها في غير الطاعة أو الشح والبخل بها كفران لها.

والأدلة في مدح هذه الخصلة متكاثرة، لكن أبرزها في الدلالة على المقصود تلك الآيات التي تصف المؤمنين بالإنفاق في حالات تعكس قوة يقينهم، واستقرار هذه الصفة في نفوسهم. وإنفاق المال صورة من أبرز صور الجود، لكنها جزء قليل منه. ومن تلك الأدلة: قوله تعالى: «يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ» «الإنسان: 8» أي: وهم في حال يحبون فيها المال والطعام، ولكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ومثله قوله: «وآتى المال على حبه» «البقرة: 177».

- قوله عز وجل في وصف المتقين المسارعين إلى الخيرات: «الذين ينفقون في السراء والضراء» «آل عمران: 134» أي: في عسرهم ويسرهم، إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئا.

تضحيات النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه:

كان النبي صلى الله عليه وسلم أكثر الناس جوداً كما وصفه بذلك صحابته. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة» «7».

فهو صلى الله عليه وسلم في الإسراع بالجود أسرع من الريح، وجوده دائم كالريح المطلقة التي لا تهب إلا بالخير والرحمة دائما، ونفع جوده يعم الغني والفقير كما تعم الريح المرسلة جميع ما تهب عليه من الأرض الطيبة أو غير الطيبة.

فقد كان صلى الله عليه وسلم مباركا أينما كان، وهو أسوة الدعاة والمصلحين.

وقد كان جوده متنوعاً شاملاً لكل أنواع الجود. ويعجز المرء على وصف بذله وتضحياته لأجل الله عز وجل وهو أمر لا يخفى يدركه جيداً من تأمل سيرته، وسير سنته، وأكثر النظر فيها، ولأجل التمثيل فقط أسوق هذه النصوص:

عن أنس رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام شيئا إلا أعطاه، قال: «فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة» «8» وصور جوده بالمال يضيق عنها المقام، ويكفي أنه أعطى أناسا ألحوا عليه مع أحقية غيرهم خشية أن يسألوه بالفحش، أو يصفوه بالبخل «9»، فما أحرى هذا بالتأمل الطويل!

وعنه قال: «إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد النبي صلى الله عليه وسلم، فتنطلق به حيث شاءت» «10» فكان صلى الله عليه وسلم باذلا لجاهه ووقته وراحته وماله.. في مرضاة الله تعالى ونفع الخلق.

كان يمكنه صلى الله عليه وسلم أن يحصل غاية ما يريده من الجاه، ونيل الرئاسة والشرف، والتمتع بزهرة الدنيا من النساء وسائر الملذات، وتحصيل الراحة والرفاهية ورغد العيش، ولكنه ترك كل ذلك لله عز وجل وضحى بكل ما آتاه الله عز وجل فبذل نفسه وماله، ووقته وجهده، وجاهه وراحته، وأرخص كل ذلك في سبيل الله.

وقد بدأت معه رحلة المعاناة منذ صعد الصفاة، وأنذر عشيرته الأقربين، فوصفوه بالسحر والجنون بعد أن كان الصادق الأمين، وأوذي وأصحابه أشد الأذى، وابتلوا أعظم البلاء، فصار يعرض نفسه على القبائل في الحج يطلب حمايته ليبلّغ دين الله، وقصد الطائف لعله يجد بغيته، فرجع مُدمى القدمين طريدا، وحوصر وأصحابه وأنصاره في الشعب ثلاث سنين حتى أكلوا أوراق الشجر من الجوع. ويعاني الصحابة من صنوف البلاء وألوان الشدائد ما لا يخفى، ويواجه بعضهم الموت كآل ياسر وخباب وبلال.

ويخرج بعض أصحابه إلى الحبشة طلبا للنصرة، ويصبرون على مفارقة الأهل والأولاد والأوطان، ويتسامعون بإسلام بعض الصناديد المشركين، فيعود بعضهم إلى مكة ليجدوا أشد مما كانوا يعانون، ثم يعودون ثانية إلى الحبشة، ومعهم آخرون في رحلة عناء أخرى. ثم يأذن الله بالهجرة إلى المدينة، ويهاجر صلى الله عليه وسلم وسائر أصحابه، ثم يكابدون الغربة، وكثرة الأعداء، وأذى المنافقين واليهود، وقتال الأهل والعشيرة.

وقد كان لكثير من أصحابه صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم صفحات طويلة من البذل والتضحيات، فيهجر مصعب رضي الله عنه النعيم والدعة ويهاجر داعية إلى الإسلام في المدينة، ويعرض علي رضي الله عنه نفسه للهلاك بنومه في فراش النبي صلى الله عليه وسلم عشية الهجرة، ويرمي البراء نفسه بين الأعداء في حديقة الموت فيفتح الله للمسلمين بسببه، ويُعرض أبو الدرداء عن التجارة تفرغا لمجالسة النبي صلى الله عليه وسلم، ويتقبل خالد بن الوليد التنازل عن منصبه طاعة لأمير المؤمنين، ويتنازل أبو عبيدة عن إمرة الجيش لعمرو بن العاص جمعا لكلمة المسلمين، ويرفض الحسن بن علي الخلافة درءا للفتنة وجمعا للكلمة، ويقبّل عامر بن عبدالله رأس زعيم الروم المشرك ليعتق له أسرى المسلمين «11». ولم يخل تاريخ النساء العظيم من روائع بالجود والتضحية، فقد ضحت أم سلمة بشمل الأسرة، وتحملت فراق الزوج والولد في سبيل الهجرة، ولا يخفى جهد أسماء وعناؤها أثناء الهجرة، ولا تضحيتها بابنها عبدالله بن الزبير في سبيل نصرة الحق.